كيف

تستعيد الأمة الإسلامية

مكانتها من جديد

د. عمر سليمان الأشقر



دار النفائس


كيف
تستعيد الأمة الإسلامية
مكانتها من جديد

الطبعة الثانية
١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م



دار النفائس
للنشر والتوزيع

الاردن ـ عمان ـ العبدلي ـ مقابل جوهرة القدس
هاتف : ٤٠ ٣٩ ٦٩ ـ فاكس : ٤١ ٣٩ ٦٩ ـ ص .ب : ٢١١٥١١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

الفهرس

تقديم ٧

الفصل الأول
فضل الأمة الإسلامية

المبحث الأول : الأمة الوسط ١٣
المبحث الثاني : سرّ هذا الفضل ١٧
المبحث الثالث : السبب في تعريف الله الأمة
الإسلامية، بمكانتها وفضلها ١٩
المبحث الرابع : ارتقاء الأمة الإسلامية إلى
المكانة الفضلى ٢٧

الفصل الثاني
تأخر الأمة الإسلامية وانحطاطها

المبحث الأول : الفرقة سبب الانحطاط ٣٥
المبحث الثاني : أنواع الفرقة ٣٨
أولا : الفرقة في الدين والاعتقاد ٣٨

ثانيا : الفرقة التشريعية ٤٦
ثالثا : الفرقة السياسية ٥٠
المبحث الثالث : أثر إثارة النعرات والعصبيات في
الفرقة السياسية ٥٣

الفصل الثالث
طريق الارتقاء بالأمة الإسلامية

المبحث الأول : الوحدة هي طريق للارتقاء ٥٧
المبحث الثاني : أصول الوحدة الإسلامية ٥٨
الأصل الأول : الانتماء للإسلام دون سواه . . ٥٩
الأصل الثاني : توحيد مصدر الهداية ٦٢
الأصل الثالث : وحدة العقيدة ٦٨
الأصل الرابع : جعل الكتاب والسنة محور
الدراسة التشريع ٧٠
الأصل الخامس : إقامة دولة الإسلام وإرجاع
الخلافةوالراشدة ٧٢
الخاتمة : مرحلة المخاض ٨١

تقديـــم [1]

الحمدلله قيوم السموات والأرض، بيده مقاليد الحكم، له الأمر كلُّه والخلق كلُّه، يصرِّف الأمور ويقدِّرها وفق علمه وحكمته، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، يعزُّ من يشاء، ويذلُّ من يشاء، بيده الخير، إنَّه على كلِّ شيء قدير، قوله القول، وحكمه الحكم، لا رادَّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا مبدِّل لأمره.

وأصلي وأسلم على عبده المصطفى، ورسوله المجتبى، خيرته من خلقه، وخاتم أنبيائه ورسله، الذي أقام الشريعة الغراء، وأنار القلوب العمياء، ومحا دولة الباطل، وطمس معالم الشرك، وأصلي وأسلم على آله وصحبه الذين جعلوه لهم قدوة وأسوة، واتبعوا النور الذي جاء به، وكانوا على المحجَّة البيضاء، يقرُّون بالحقِّ ويدعون إليه، ويجاهدون في

(١) قُدِّم هذا البحث إلى «مجمع الفقه الإسلامي» في دورته الرابعة التي عقدت في مقر المجمع في جده في المملكة العربية السعودية بتاريخ (١٨) إلى (٢٣) من جمادي الثانية ١٤٠٨ هـ. الموافق (٦) إلى (١١) من فبراير ١٩٨٨م. ونشر البحث في الجزء الثالث من العدد الرابع من مجلة المجمع ص ٢٥٠٧.

سبيل إعلائه حتى ظهر أمر الله، وأصبح الدين كلُّه لله، وعلى التابعين ومن اتبع سبيلهم إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الأمة الإسلامية ـ بإذن من الله وقدر ـ تسلمت قيادة ركب البشرية منذ أن تكونت على يدي معلم البشرية وهاديها محمد ﷺ، واستمرت على ذلك دهوراً طويلة، ولكنها فقدت تلك المنزلة شيئا فشيئاً، حتى أصبحت في أيامنا على الحال التي نعرفها ونشاهدها، ذلَّت بعد عزة، وجهلت بعد علم، وضعفت بعد قوة، وأصبحت في ذيل القافلة بعد أن كانت في طليعتها، وأخذت تتسول على موائد الفكر الإنساني بعد أن كانت منارة تهدي الحيارى والتائهين، وأخذت تضطرب في سيرها وتتأرجح في فكرها، ولا تعرف السبيل الذي تسلكه بعد أن كانت الدليل الحاذق الرائد في الدروب المتشابكة في الصحراء التي لا يهتدي فيها الأدلاء المجربون.

وجاء الذين آلمهم حال أمتهم من أصحاب الفهم الثاقب، والبصر النافذ، والرأي السديد يفكرون في حال هذه الأمة في ماضيها وحاضرها، فهالهم الأمر، فالبون بين الحالين بعيد والفرق كبير.

لقد جرَّب عالمنا الإسلامي مختلف الأنماط في عصره هذا، فقد تسلط على رقابنا جماعات وأحزاب وعدتنا بأنها

ستعيد لنا عِزَّتنا وكرامتنا وأنها ستنهي مشكلاتنا، وتجمع شملنا، وتوحد جموعنا، وننظر إلى حالنا وقد مضى على الأمل الموعود وقت طويل فلا نرى إلا السراب، لقد كان حظنا مما وعدنا به مزيدا من الفرقة والانقسام والتأخر، فقد أصبحت الأمة الواحدة أمما، والدولة دولا، وانتشر الفقر، وازدادت التعاسة في كثير من ديار المسلمين، وضاع كثير من هذه الديار عندما استولى عليها أعداء الله من الشيوعيين والصليبيين واليهود.

لقد تبين لنا تبيناً لا لبس فيه فشل دعاة الوطنية ودعاة القومية، كما فشل الاشتراكيون والبعثيون، ولم يبق إلا الإسلام.

لقد نجح الإسلام في الماضي عندما حكم هذه الديار ـ ديار الإسلام ـ نجح في إيجاد مجتمع مثالي في عالم البشر، فقد أوجد كيانا سعدت به البشرية، وترعرعت في جنباته الفضائل والقيم الصالحة، وتناسى المسلمون في ظله العصبيات للأقوام والأجناس والأوطان، وأصبحوا في ظله إخوة، ولاؤهم لله رب العالمين.

لقد أضاع المسلمون الكثير من تعاليم دينهم، وانحرف بهم المسار، واستبدلوا به عادات موروثة، وعادات وفلسفات

وتوجهات وافدة، فكان ثمار ذلك الفرقة والانقسام والهزائم العسكرية والفكرية.

واليوم صحا المسلمون من جديد يحاولون تنظيم صفوفهم، وتلمس طريقهم ليحملوا الراية من جديد، غير أن الطريق مليء بالصعاب محفوف بالمخاطر، فالأعداء متربصون بنا من كل جانب يرصدون حركاتنا، ويقرؤون كتاباتنا، ويدرسون فكرنا، ثم يأتمرون ويخططون، ويرسلون إلينا سهامهم، وبعض سهامهم رجال من هذه الأمة، يدعوننا إلى الدمار وغضب الجبار، وقد أصيب جموع كثيرة من هذه الأمة، كما أصيب الدعاة الصالحون فيها بسهام الأعداء ومكرهم وخديعتهم.

أضف إلى ذلك الجهل الذي انتشر في ربوع العالم الإسلامي، والأمراض الفكرية الهائلة التي يعاني منها المسلمون في هذا العالم الرحب، كل ذلك يؤخر المسيرة، ويضعف تيارها، ويجعلنا نعاني معاناة هائلة ونحن نشقُّ طريقنا إلى الأمام.

وهذا البحث يسلِّط الضوء على المكانة الفضلى التي استحقتها هذه الأمة، والسرِّ في استحقاقها لها، ثم يبيِّن السبب الذي عزل الأمة عن المكانة التي كانت تحتلها، وقد

أعاد الباحث هذا إلى سبب واحد هو الفرقة بأنواعها: الفرقة في الدين والاعتقاد، والفرقة التشريعية، والفرقة السياسية.

كما سلَّط الضوء على الطريق الذي يعيد للأمة عِزَّها من جديد، ويرقى بها إلى المكانة التي كانت تحتلها، وقد أعاد الباحث هذا إلى سبب واحد هو الوحدة بكلِّ أنواعها وشتى مجالاتها وأصول هذه الوحدة: الانتماء للإسلام دون سواه، وتوحيد مصدر الهداية، ووحدة العقيدة، والوحدة السياسية المتمثلة في إقامة الدولة الإسلامية وإرجاع الخلافة الراشدة.

وختمت البحث بكلمة موجزة، لإلقاء الضوء على طرق الدعاة التي سلكوها في عملهم في مجال الارتقاء بالأمة إلى المستوى الذي يطمعون في بلوغها إليه.

وفق الله العاملين بالإسلام إلى توحيد الوجهة والعمل، وإلى توحيد الصفوف، ورصِّها، وسدِّ الثغرات، وتقويم النفوس وبناء الأمة بالإسلام، كي تستعيد الأمة مجدها من جديد.

د. عمر سليمان الأشقر

الفصل الأول
فضل الأمة الإسلامية

المبحث الأول
الأمة الوسط

قال تعالى مبينا فضل هذه الأمة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١).

وأصل الوسط الموضع الوسط الذي هو الجزء بين طرفين. والوسط مركز الاتزان والاعتدال، يقول الزمخشريُّ في هذا: «الوسط عدل بين الأطراف، ليس إلى بعضها أقرب من بعض» (٢).

وقد تعارف الناس على ذمِّ الذي يمسك أحد طرفي الشيء ولا يلزم موضع الاعتدال، فتراهم يقولون: فلان

---

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

(٢) الكشاف: ١ / ٣١٧.

متطرف في أمره في مقام الذمّ، كما يقولون: فلان معتدل في مقام المدح.

والسرُّ في ذلك أنَّ العباد في أكثر أحوالهم يجنحون إلى الإفراط أو التفريط، فترى بعضهم يجنح إلى الغلو في الرهبنة والتعبد حتى يتركوا الزواج والملذات ويسكنوا الفيافي والقفار، وآخرون يغرقون في العبِّ من الشهوات والتمتع بالملذَّات بعيدا عن مقاصد الشرع وضوابطه، واتباع المنهج الوسط الذي يحقق الاعتدال والاتزان يقضي بأن يعيش المرء في دنياه آخذاً منها قدراً أباحه الله من الطيبات في الوقت الذي يؤدي حقَّ ربِّه، ويكون همّه تحقيق مراد الله منه.

يقول الطبري في تفسير الوسط: «وأنا أرى أنَّ الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء الذي هو بين طرفين، مثل وسط الدار، وأرى أنَّ الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنَّهم وسط لتوسطهم في الدِّين، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين غلو بالترهب، وقولهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم مقصرين فيه تقصير اليهود، الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياء الله، وكذبُوا على ربهم وكفروا به، ولكنَّهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك إذ

كان أحبُّ الأمور إلى الله أوسطها»[1].

والوسط هو الأفضل والأحسن لأمرين:

الأول: أنَّ الأطراف يتسارع إليها الخللُ والأعوارُ، والأوساط محميةٌ محوطةٌ، كما يقول الزمخشري[2]، ومنه قول الطائي:

كانت هي الوسط المحميَّ فاكتنفت
بها الحوادثُ حتى أصبحت طرفا

والثاني: أن الوسط هو مركز الاعتدال والاتزان، فالعرب تقول: قريش أوسط العرب نسبا، أي أفضلها، والرسول ﷺ وسط في قريش، أي أفضل قريش نسبا، وفي هذا يقول زهير بن أبي سلمى[3]:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم
إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

وفي محكم التنزيل ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾[4] أي خيرهم، وقال تعالى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ

---

(١) تفسير الطبري: ٢ / ٦.
(٢) تفسير الزمخشري: ١ / ٣١٧.
(٣) تفسير الطبري: ٢ / ٦.
(٤) سورة القلم: ٢٨

وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾ (١).

والصلاة الوسطى صلاة العصر كما ثبت في بعض الأحاديث، وما حثَّ على الالتزام بها إلا لأنَّها أفضل من بقية الصلوات. وفي الحديث «الفردوس وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن».

وقد صرَّح الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ بأفضلية هذه الأمة على غيرها من الأمم مما يدلُّ على أنه عني بالوسطية الأفضلية، وهذا التصريح جاء في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (٢).

وصرَّح في موضع آخر باجتبائه لهذه الأمة واصطفائه لها، ولا يكون الاصطفاء والاجتباء إلا لفضلها وعلوِّ شأنها، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (٣).

---

(١) سورة البقرة: ٢٣٨.

(٢) سورة آل عمران: ١١٠

(٣) سورة الحج: ٧٨

المبحث الثاني
سر هذا الفضل

إنَّ هذا التفضيل الذي صرحت به النصوص ليس اعتباطا، وإنما كان لأنَّ الأمة الإسلامية استقامت على منهج الله، فالإسلام هو الذي صنع هذه الأمة، فقد بنى عقيدتها، ورسم منهجها وطريقها، وأقام أخلاقها وقيمها، وتأمل في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[1]. تجد أن كلمة ﴿جعلناكم﴾ ليس معناها خلقناكم، وإنما المعنى الصحيح هو صيرناكم أمة وسطا، وإنما صيَّرها الله كذلك بدينه المنزل، عندما استقامت على الخصائص التي رسمها ربُّ العالمين، وتستطيع أن تلحظ هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2].

فها هنا مُخْرِج وهو الله، ومُخْرَجٌ وهو هذه الأمة، وأداة حصل بها الإخراج على هذا النحو وهو الإسلام، فبالاستقامة على الإسلام تحققت الأفضلية.

إذن ليست الأفضلية والخيرية لقبا أطلق على هذه الأمة من غير مضمون، ولكنه عنوان لحقيقة تجسدت في هذه

(١) سورة البقره: ١٤٣.
(٢) سورة آل عمران: ١١٠

الأمة، فقد سما هذا الدين بهذه الأمة في عقيدتها وتفكيرها وتوجهات قلوبها وأقوالها وأعمالها ونظمها، حتى مَثَّلت الأنموذج الفاضل الذي يريده الله تبارك وتعالى للبشرية.

وهذه الأفضلية مرهونة باستمرار هذه الخصائص في الأمة، فإذا تدنت هذه الخصائص أو انحرفت أو زالت، فإن الخيرية تتناقص أو تضمر أو تضعف. وهذا هو السرُّ في تخلف هذه الأمة في عصرنا، والسبب فيما أصابها من فرقة واختلاف، وما رماها به الأعداء من بلايا ومصائب.

إن أفضلية هذه الأمة تتلخص بأخذها بهذا الدين في نفسها، ودعوة الناس إلى الحق الذي قرره هذا الدِّين، ونهيهم عن الباطل الذي نهاهم عنه هذا الدين، مع تحقيق الإيمان وفق ما جاء به الإسلام ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (١).

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠.

المبحث الثالث
السبب في تعريف الله
الأمة الإسلامية بمكانتها وفضلها

إنَّ الحياة الإنسانية مجال صراع رهيب بين الأمم المختلفة، وكلُّ أمة تدعي أنها الأفضل والأكمل، وأنها التي تستحقُّ أن تغلب وتسود، وقد أخبر الله هذه الأمة بمكانتها كي لا تذلَّ في مجال الصراع، ولا تهون في ميدان الخصام ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾(١).

لقد ادعى كلٌّ من اليهود والنصارى والوثنيين أنه الأفضل والأكمل، وأنَّ غيره ليس على شيء ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾(٢).

والذين لا يعلمون هم مشركو العرب.

وغلا اليهود والنصارى في دعواهم عندما ادعوا أنَّهم أبناء الله وأحباؤه ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٩.
(٢) سورة البقرة: ١١٣.

وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾[1] وادعوا أنَّ الجنة وقف عليهم ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾[2].

ورتب كلٌّ فريق على دعواه مطالبة غيره باتباع منهجه: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾[3].

ولا تزال الأمم المختلفة إلى اليوم تدَّعي هذه الدعوى، لفد رفع هتلر شعار ألمانيا فوق الجميع، والشعب الأمريكي اليوم يشعر كأنه من طينة أخرى غير طينة البشر، وروسيا تدعي أنَّها جاءت العالم بإكسير السعادة.

إنَّ اليهود كانوا في ميزان الله خير الأمم عندما استقاموا على الشريعة التي أنزلها الله تبارك وتعالى ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ على

---

(١) سورة المائدة: ١٨.
(٢) سورة البقرة: ١١١.
(٣) سورة البقرة: ١٣٥.

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]. ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[2].
والنصارى كانوا أصحاب رسالة لهم في ميزان الله فضل عندما استقاموا على الدِّين الذي أنزله الله إليهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾[3]. ولكن اليهود والنصارى انحرفوا عن المسار، وتنكبوا الجادَّة، فأصبح اليهود مغضوباً عليهم، والنصارى ضالين، وهم في ميزان الله من الخاسرين، لقد غيروا وبدَّلوا فلعنهم الله، وغضب عليهم، وضرب عليهم الذلَّة والمسكنة، وهم لا يمثلون اليوم الفئة الفاضلة في ميزان الحق، وقد جاءت هذه الأمة من بعدهم لتكون الأمة الفاضلة.

وإذا أنت رجعت إلى سورة البقرة، وإلى ما حدَّثنا الحق فيها عن أهل الكتاب، ترى أنَّ القرآن كشف لنا عن الدعوى المضللة التي يدعيها أهل الكتاب من أنَّهم الأفضل

---

(١) سورة البقرة: ٤٧.
(٢) سورة الدخان: ٣٢.
(٣) سورة الصف: ١٤.

والأصلح، وبيّن أنها دعوى زائفة، ذلك أن أهل الكتاب انحرفوا عن الخصائص التي كانت ترفعهم إلى مصافٍّ الأمة الفاضلة وسرتْ فيهم العلل والأدواء التي شوهت العقيدة الصافية، والشريعة المنزلة، واختلت عندهم القيم والتصورات الإيمانية، كما اختل السلوك والقول والعمل، فمن اتهامات للخالق العظيم، إلى تشويه لسير الأنبياء، إلى تحريف للكتب المنزلة، إلى كتمان للعلم، وسفك للدماء، وتمرد على أحكام الشرع، واتباع الشياطين.

وبعد هذا البيان الطويل لحال الأمم التي تدعي الأفضلية في سورة البقرة يأتي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(1) ليقرر مكانة هذه الأمة، وأنها الأمة الفاضلة كي تعرف مكانتها، ولا تهون في مواجهة أهل الكتاب، ولقد سمّى أهل الكتاب الذين يحاولون انتقاص هذه الأمة، وإلقاء الشكوك حول تشريعها بالسفهاء ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾(2).

إنهم سفهاء فقدوا المقاييس القويمة، واختلت عندهم الضوابط، ولذلك صدرت عنهم أحكام خاطئة، وتصرفات باطلة.

---

(1) سورة البقرة: ١٤٣.

(2) سورة البقرة: ١٤٢.

أما الأمم الأخرى التي تنازع هذه الأمة الفضل، ففضلها دنيوي عارض، ليس له في ميزان الله اعتبار، لأنه قائم على متاع الدنيا العارض ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1]، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[2]، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.[3]

ولقد وصف القرآن الحضارات التي ارتقت في العلوم الماديَّة، ولكنها انحدرت في عقيدتها وأخلاقها وقيمها بالضلال والزيغ.

إن المجتمع الذي يستحقُّ أن يوصف بالرقي ـ في ميزان الله ـ هو المجتمع الذي يقيم حياته وفق منهج الله وتشريعه، وإن كان غير متقدم في مجال العمران والزراعة والصناعة.

أما الجاهلية فإنَّها تعتبر المجتمع راقيا إذا كان يملك العلوم المادية، والمجتمع المتأخر في عرفها هو المجتمع الفقير الذي لا يملك أسباب الرقيِّ الماديِّ وتنتشر فيه الأمية.

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٥.

(٢) سورة الأنعام: ٣٢.

(٣) سورة الروم: ٧.

ونحن عندما ندرس المجتمع الإسلامي المثالي نراه كان مجتمعا فقيرا، لا يكاد الفرد يجد فيه ما يسدُّ رمقه، ولا ما يواري جسده، وكانت بيوت الرسول ﷺ يمرُّ عليها الهلال والهلال والهلال، ثلاثة أهلة في شهرين ـ كما تقول أم المؤمنين عائشة ـ ولا يوقد فيها نار لانضاج طعام، والذين كانوا يحسنون القراءة والكتابة في ذلك المجتمع قليل، والصناعات والعلوم التي ترقى بالحياة في جانبها المادي كانت فيهم قليلة نادرة.

إنَّ نظرة الجاهلية إلى المجتمع الصالح المتحضر تصادم نظرة الإسلام، إنَّ الإسلام يَصِمُ أكثر التجمعات الإنسانية تقدما بالتأخر والرجعية والضلال إن لم تحقق العبودية لله، ولم تُقِم حياتها وتشريعاتها وفق منهج الله. إنَّ هذا الرقيَّ الماديَّ والعلم الماديَّ لم يخلص فرعون ونمرود وعادا وثمود وغيرهم من الأمم من مقت الله وغضبه، ليس معنى هذا أن الإسلام يحارب الرقيَّ الماديَّ، فالإسلام يأمرنا أن نسعى في الأرض لنسخِّر ما فيها من خيرات لصالحنا، ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾(1).

---

(1) سورة الملك: ١٥.

ولكنه يريد منا أن نبني الرقيَّ على أصول سليمة قوية، يريدنا أن نُقوِّم علوم الحياة ونضبطها بضوابط إلهية تحميها من الانحراف والضلال، فلا نقيم الصروح الضخمة التي تستنفذ طاقات الألوف وعشرات الألوف من البشر لغاية تافهة، كما فعل بناة الأهرام الذين أفنوا أعمار أجيال ليقيم الحاكم هرما يكون له قبرا، أو كما فعل النصارى عندما أقامواالكنائس الفخمة والأديرة، وبذلوا في سبيل ذلك جهودا وأموالا هائلة كان أكثر الأمة بحاجة إلى القليل منها.

وقد أنكر هود على قومه مثل هذه الأفعال الحمقاء ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾[1].

والجاهلية الجديدة أثمرت حضارة مادِّية هائلة سخرتها لخدمة الشيطان، وإقرار الظلم وإزهاق الحقِّ، وامتصاص دماء الشعوب المغلوبة على أمرها، وأزهقت أرواح الملايين من البشر لا لشيء إلا لكي تكون العزة لأمة على بقية الأمم، أو لشعب على بقية الشعوب.

نحن لا نوافق الأمم التي تدعي أنها الأفضل والأحسن لأنها تملك العمارات الشاهقة، والحدائق الغناء، والمسارح

(١) سورة الشعراء: ١٢٨ - ١٢٩.

الرحبة، والقصور الفخمة، والشوارع المنسقة، والمدارس والجامعات والمستشفيات. . لا نوافقها على أنها الأفضل من أجل ذلك وحده، ولا لأنَّها توصلت إلى علوم هائلة بنت بها الرقيَّ الماديَّ، ولو كان هذا صحيحاً فإنَّ اللص صاحب القصر الكبير أفضلُ من الشريف صاحب الكوخ الصغير، والعَالِمُ الذي يخطط لتدمير البشرية أفضلُ من الإنسان العادي الذي يسعى في إصلاح العباد.

لقد أقامت كثير من الأمم حضارات راقية في المجال الماديِّ، ولكنَّها أقامتها على أسس ظالمة، فأتى الله بنيانهم من القواعد، ودمَّر ما كانوا يعرشون ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾[1] ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[2].

---

(١) سورة الحج: ٤٥.

(٢) سورة الأنبياء: ١١ ـ ١٤.

المبحث الرابع
ارتقاء أمَّة الإسلام إلى المكانة الفضلى

حقَّق المسلمون ـ بفضل الله ورحمته ـ في عالم البشر الرقيَّ العظيم الذي أصبحوا به خير أمة أخرجت للناس.

ويمكننا أن نلخص العوامل التي أوصلتهم إلى هذا الرقي العظيم في عبارة واحدة: «لقد حققوا الهدف الذي خلقهم الله من أجله ألا وهو العبودية لله العظيم» ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[1].

ومن أجل تحقيق هذا الهدف العظيم أنزل الله كتبه، وأرسل رسله، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[2].

ويحقق البشر العبودية لله في عالمهم عندما يرضون بالله إلهاً معبودا، ويتخذون دينه الذي أنزله منهجا يستمدون منه عقيدتهم وأخلاقهم وتشريعهم، فالدِّين الذي أنزله الله منهجا يقيم العباد على النحو الذي يريده الله تبارك وتعالى، وهو نظام كامل يصوغ حياة البشر صياغة إلهية

(١) سورة الذاريات: ٥٦.
(٢) سورة الأنبياء: ٢٥.

ربانية، لذا فإنَّ العبارة التي تقول: «إنَّ الإسلام منهج الحياة» تلخص القضية بأوجز عبارة وأوضحها.

وتحقيق العبودية باتخاذ الإسلام منهج حياة يحقق الصلاح للنوع الإنساني في داخل نفسه وفي مجتمعه، ولذلك لم يبعد عن الحقيقة الذين قالوا إنَّ غاية الدين الذي أنزله الحقُّ - تبارك وتعالى - هي إصلاح النوع الإنساني، وقطع دابر الفساد، فقد قال شعيب لقومه: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾[1]. وذمَّ الله المفسدين في الأرض: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[2]. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾[3].

إن إصلاح الإنسان حسب فقهنا لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ يتمُّ بأمرين:

الأول: إصلاح الفرد، وذلك بإصلاح عقيدته وتصوراته وأفكاره وقيمه وأخلاقه وموازينه.

---

(١) سورة هود: ٨٨.
(٢) سورة البقرة: ٢٠٥.
(٣) سورة القصص: ٤.

والثاني: إصلاح المجتمع الإنساني بإصلاح علاقاته ونظمه وقوانينه.

وإذا أنت تأملت سيرة المصطفى ﷺ رأيت عنايته كانت منصبَّة في المرحلة المكية على تحقيق الأمر الأول ألا وهو إصلاح الفرد، بينما كانت عنايته متجهة في المرحلة المدنية إلى تحقيق الأمر الثاني، وما أسلم صلوات الله وسلامه عليه الروح لبارئها، إلا بعد أن قام المجتمع المسلم الصالح الذي يقوم على أفراد صالحين.

لقد نجح الإسلام في إقامة مجتمع صالح، استنارت بصائر أفراده، وصلحت عقائدهم، واستقامت أخلاقهم، وأحكمت العلاقات فيما بينهم، وكانت الدينونة فيه لله وحده، وكان حاكم المسلمين فيه واحدا منهم، يخضع لسلطات التشريع كما يخضعون، ويحاسب كما يحاسبون، ونسج الإسلام من ذلك المجتمع وحدة، كانت آصِرتُها الدِّين، ولُحمتُها التقى، وهدفها تحقيق العدل في ربوع الأرض بمنهج الحق، وساح المسلمون في المشارق والمغارب ينشرون دين الله، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وتحطَّمت القوى الجاهلية الجبارة أمام المدّ الإسلامي المتماسك، وأصبحت الدولة الإسلامية هي الدولة العظمى

إلى أمد ليس بالقصير، وصدق الله في هذه الأمة قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1].

لقد كان العرب في جزيرة العرب حيارى تائهين ضالين يسلب قويُّهم ضعيفهم، ويقتل بعضهم بعضاً، لا دين يجمعهم، ولا ملك يوحدهم، فغيَّروا ما بهم من أمراض، وأصلحوا نفوسهم وأمتهم بالدين، فارتقوا إلى مرتبة لم يسبقهم فيها سابق، ولم يلحقهم فيها لاحق، وكانوا كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[2].

لقد أنجز الله لهم ما وعدهم فاستخلفهم في الأرض، ومكَّن لهم دينهم الذي هو سبب عِزِّهم وذكرهم، عندما أنجزوا ما شرطه الله عليهم ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾[3]

---

(١) سورة الرعد: ١١.

(٢) سورة آل عمران: ١١٠.

(٣) سورة النور: ٥.

ولا نزال إلى اليوم ننعم ببقية صلاح الأجيال الأولى التي حملت الإسلام، فعلى الرغم من البلايا والرزايا التي تعرض لها الإسلام من أعدائه وحكّامه عبر تاريخ المسلمين الطويل، إلا أنَّ الإسلام لا يزال له وجود ظاهر، وحملته من المسلمين منتشرون في كلِّ مكان.

الفصل الثاني
تأخر الأمة وانحطاطها

إن المتفكر في حال الأمة الإسلامية عندما يقارن بين حاضرها المشهود، وماضيها الغابر يهوله الأمر، فالبون شاسع، والفرق بعيد، وعندما يُرجِعُ الباحث النظر مرة أخرى مقارناً بين الواقع المشهود والموقع الذي رسمه القرآن لها فإنَّه يجدها لا تتبوأ المقعد الذي حددَّه القرآن لها.

والدارس لخط سير تاريخ الأمة الإسلامية يجد أنَّ استمرار الأمة الإسلامية على خصائصها التي جعلتها خير أمة أخرجت للناس لم يظلَّ على وتيرة واحدة، فالخطُّ البياني كان ولا يزال متذبذبا بين هبوط وصعود.

وقد أشار الرسول ﷺ إلى هذا التذبذب في خط سير الأمة الإسلامية، فقد سأل حذيفة بن اليمان الرسول ﷺ قائلا: «يا رسول الله إنا كنَّا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم.

قلت: وهل بعد ذلك الشرِّ من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يَسْتَنُّون بغير سنتي، ويهتدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر.

قلت: فهل بعد ذلك الخير من شرٍّ؟ قال: نعم. دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها.

قلت: يارسول الله، صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا.

قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم.

قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام. قال: فاعتزل تلك الفرق كلِّها، ولو أن تعَضَّ على أصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك». رواه البخاري.

فالأمة الإسلامية كما يشير الحديث يصيبها الشرُّ فتهزل، ثمَّ تعود إلى أصالتها، وقد تكون العودة مشوبةً فيها دخن على حدِّ قول الرسول ﷺ: «وفيه دخن». وقد يكون الانحراف هائلا، وذلك عندما يتسلط على رقاب هذه الأمة دعاة على أبواب جهنّم، يدعون الناس إلى مذاهب كافرة، فمن استجاب لهم كان مصيره النار، وبئس القرار.

المبحث الأول
الفرقة هي سبب التأخر والانحطاط

ألمحنا من قبل إلى أنَّ الرقيَّ العظيم الذي رفع هذه الأمة هو أخذها بالدين الذي أنزله الله تبارك وتعالى، ثمَّ التفافها حول هذا الدين فأصبحت أمة واحدة، فتشكلت من هذه الأمة قوة هائلة لا تغلب.

ويمكن أن نعيد تأخُّر المسلمين وانحطاطهم إلى قضية واحدة هي الفرقة التي فرَّقت وحدتها، فجعلتها أمماً وشيعاً وطوائف وتجمعات.

إن السِّمة العظيمة التي تعطي الأمة الإسلامية مكانة قوية هائلة هي اجتماعها على أساس من دينها، وهذه حقيقة أثبتها القرآن ونبَّه إليها وأمر بها، فقد أمرنا القرآن بالوحدة ونهانا عن الاختلاف والتفرُّق، قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (١).

ثم ذكرنا بالحال التي كنا عليها قبل الإسلام. فقد كنَّا قبائل متفرقة، يقتل بعضها بعضا، ويسبي بعضها بعضا،

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.

فجاءنا الله بالإسلام فأصبحنا في ظلّه إخوة أحبة ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ (١).

ثم نهانا الحقُّ تبارك وتعالى عن مسلك الأمم السابقة وهو التنازع والاختلاف بعد أن جاءتنا البينات ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ (٢).

وقد أخبر جلَّ وعلا أنَّ التنازع يسبب الفشل وذهاب القوة، ذلك أنَّ الوحدة تجعل الأمة قوية متماسكة في وجه الرياح والأعاصير، وعندما توجه هذه القوة مجتمعة نحو أعدائها، فإنَّها تفتت بأسهم وتقضي على كيدهم، فإذا اختلفت الأمة أصبح بأسها بينها، وهذا هو الفشل، لأنها تدمِّر نفسها بنفسها، وعند ذلك ينال أعداؤها منها ما يريدون، وقد حذَّرت النصوص من هذا المصير، وأخبرت أنَّ الفرقة تعني ذهاب القوة وغلبة الأعداء ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٥.

﴿فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [1].

وفي صحيح مسلم عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بِسِنَةٍ عامة، وأن لا يسلِّط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، فيستبيح بَيْضَتَهَم. وإنَّ ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يردُّ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بِسِنَةٍ عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا فيستبيح بَيْضَتَهَم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، ويسبي بعضهم بعضا».

إن الوعد الإلهي في غاية الوضوح، لقد وعد الله هذه الأمة بالنصر والتأييد والغلبة ما دامت متحدة على كلمة سواء، فإذا تفرَّقت واختلفت واقتتلت فهناك تكون الهزائم وتسلُّط الأعداء، وحلول النقم والبلايا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) سورة الأنفال: ٤٦.

المبحث الثاني
أنواع الفرقة

وقد وقعت الأمة الإسلامية في المحذور، فتفرقت وتنازعت واختلفت، وتعدَّدت أشكال الفرقة، ويمكن إرجاعها إلى ثلاثة أنواع:

١ ـ الفرقة العقائدية. ٢ ـ والفرقة التشريعية. ٣ ـ والفرقة السياسية.

وسنعرض لكل واحدة من هذه الثلاث بقدر ما يسمح به المقام.

أولا: الفرقة في الدين والاعتقاد:

أخطر أنواع الفرقة الفرقة العقائدية، لأنَّ الإنسان أسير فكره ومعتقده، وما عمل الإنسان وسلوكه وتصرفاته في واقع الحياة إلا صدى لفكره وعقيدته، ومن هنا كان تبني الفكر المنحرف، وغرس العقائد الضالة في قلوب المسلمين موجبا لاختلاف المسلمين في واقع الأمر.

إنَّ الله أراد لهذه الأمة أن تنضوي على اختلاف أجناسها وألوانها ولغاتها تحت اسم واحد هو الإسلام، ولكنَّ

الدعوات الضالة لم تزل تطل برؤوسها عبر التاريخ الإسلامي لتجزِّىء المسلمين إلى فرق وجماعات تخالف الإسلام مخالفة كلية أو جزئية.

إن بعض الدعوات والانحرافات التي نشأت في المسلمين تنادي بتوجُّه المسلمين إلى عبادة غير الله، واتباع منهج غير منهج الله، فعادت في ديار الإسلام كثير من مظاهر الشرك المتمثلة بعبادة الأولياء والأموات والأشجار والأحجار، فترى بعض الجهلة من المسلمين يدعونها ويستغيثون بها وينذرون لها ويحجُّون لها، ويخافون منها كخوفهم من ربِّ العباد.

هذه طائفة لها أتباع وأنصار يُعَدُّون بعشرات الملايين يزعمون أنهم مسلمون، ومؤسس الجماعة يطالب أتباعه إذا ما وقع الواحد منهم في الكرب أن يناديه هو، لا أن يلجأ إلى الله، يقول من قصيده له:

إذا كنت في همٍّ وغمٍّ وكربة
فنادني أيا مرغني أنجيك من كل كربة

وهذا البوصيري يمدح الرسول ﷺ، فيأتي بقصيدة مدهشة، ولكنه أذهب جمالها وبهاءها وطمس ضياءها بما قذَّرها به من شرك، وبغلوه في الرسول ﷺ، ودعائه له من

دون الله. وفي ذلك يقول:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به
سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بي
إذا الكريم تحلّى باسم منتقم
فإنّ من جودك الدنيا وضرّتها
ومن علومك علم اللوح والقلم

إنَّ البلاء الأعظم الذي أصاب البشر كما يعلِّمنا القرآن ـ هو اختلافهم في الدِّين، وذلك باتخاذهم من دون الله أنداداً، وعدم استقامتهم على دين الله ومنهجه، وفي ذلك يقول ربُّ العزة: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[1].

ويقول في موضع آخر: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾[2].

---

(١) سورة المؤمنون: ٥٢، ٥٣.
(٢) سورة الأنبياء: ٩٢، ٩٣.

وقد فسَّر ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير وعبدالرحمن بن أسلم الأمَّة الواحدة التي وردت في النصين السابقين بالدين الواحد[1].

والتقطُّع الذي أشارت إليه الآيتان هو التفرق والاختلاف وعبادة غير الله واتباع غير منهجه، وقد لا يصل الأمر إلى عباده غير الله، ولا إلى الخروج عن دين الله خروجا تاما، ولكنَّ الأمة تختلف في الأصول، وكلُّ هذا يفرِّق الأمة، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنَّ هذا البلاء قد أصاب الأمم من قبلنا، وأنه سيصيب هذه الأمة كما أصاب غيرها من قبلها.

ففي سنن أبي داود ومسند أحمد بإسناد صحيح عن معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: «ألا إنَّ من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين مِلَّة، وإنَّ هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، اثنتان وسبعون في النَّار، وواحدة في الجَنَّة وهي الجماعة». زاد في رواية: «وإنه سيخرج في أمتي أقوام تَتَجَارى بهم الأهواء، كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه، لا يبقى منه عِرْقٌ ولا مِفْصل إلا دخله». (التجاري: الوقوع في

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/٥٩٠.

الأهواء الفاسدةَ. والتداعي فيها تشبيهها بجري الفرس.
والكلب: داء معروف يعرض لِلْكَلْبِ إذا عَضَّ حيواناً عَرَضَ له أعراض ردئية فاسدة قاتلة، فإذا تجارى بالإنسان وتمادى هلك).

وفي سنن أبي داود وسنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «تفرَّقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة».

لقد انقسمت الأمة إلى خوارج ومعتزلة وشيعة وأشاعرة وكلَّابية وماتريدية ومرجئة وقدرية، واختلفت هذه الفرق في الإيمان وحدوده، كما اختلفت في صفات الله وقدرِ الله، ونشأ عن ذلك كلِّه اختلافات في واقع الأمر. وقد تبنت كثير من هذه الفرق مناهج مضادَّة للمنهج الإسلامي، ومن ذلك تبني المنهج الفلسفي الكلامي في إرساء العقيدة والإيمان. وهذا المنهج مزاحم للمنهج الإيماني القرآني القائم على الوحي، وعمدة المنهج الفلسفي الكلامي نظريات عقلية، وأصول فلسفية، ومصطلحات منطقية، وهذا المنهج يختلف عن المنهج الإيماني القرآني في طريقة الاستدلال وفي المقصد والهدف.

فالاستدلال القرآني الإيماني أساسه الوحي والإيمان بالرسالة، ومن علوم الوحي نعرف ربَّنا، وقد أرشدنا القرآن إلى الدلائل العقلية، ووجه أنظارنا إلى التفكير في الكون، وهذه الدلائل دلائل فطرية قريبة المأخذ مأمونة العاقبة، والغاية التي يدعو المنهج القرآني إليها هي عبادة الله وحده لا شريك له، وعبادته متضمنة لمعرفته وتوحيده.

أمَّا عمدة المنهج الكلامي الفلسفي فهو تلك النظريات والأقيسة العقلية التي جعلوها أصولاً للعقائد والتشريعات، وهذه الأدلة فيها حقٌّ وباطل، وهي سبيل وعر لا يسهل الارتقاء إليه، وقد ينقطع السالك قبل الوصول إلى مراده منه.

وقد اقتضت الأقيسة الباطلة ردَّ كثير من الحقِّ الذي في الكتاب والسنَّة فردُّوا كثيراً من الأسماء والصفات بهذه الأقيسة الباطلة.

والغاية التي كانوا يريدونها من وراء بحوثهم هي المعرفة الباردة، وهذا لا يكفي، فدعوة الرسل عبادة الله وحده.

وهذا يفسِّر لنا ذلك البرود الذي نجده لدى العلماء الذين يتخرجون من كثير من الجامعات الإسلامية اليوم.

ومن المناهج المخالفة للمنهج الإسلامي المنهج الصوفي الذي يُغْرِقُ في التعبد، ويستحدث أنماطا من العبادات لم يشرعها الله تبارك وتعالى.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن هذا المنهج، ففي سنن أبي داود عن أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تشدِّدوا على أنفسكم فيشدِّد الله عليكم، فإنَّ قوماً شدَّدوا على أنفسهم، فشدَّد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والدِّيار، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم».

وقد قوّم الرسول ﷺ توجُّه كثير من أصحابه الذين أرادوا قيام الليل كلِّه، وصيام الدَّهر أبدا، أو أرادوا الانقطاع إلى العبادة واعتزال النساء، أو تحريم اللحم، وبيَّن لهم أنَّ ذلك كلَّه مخالف لسنَّة الرسول ﷺ، وأنَّ من رغب عن سنته فليس منه.

وجاءت الطامَّة الكبرى في العصر الحديث حيث قامت في ديار المسلمين دعوات أخذت تنادي بالكفر الصراح، ونبذ الإسلام والانضواء تحت رايات تعلن الحرب على الإسلام، ومن هذه الدعوات تلك التي تنادي بالعلمانية والشيوعية والبعثية. والدعوات التي تنادي بالاعتزاز

بالحضارات الكافرة البائدة كالفرعونية والآشورية والبابلية، وقامت دعوات تضع مبادىء ضالة على أساس القومية والوطنية، وتحت ستار هاتين الدعوتين توضع مناهج مخالفة للإسلام تدعو الناس إلى تجمعات ضيِّقة تضاد الإسلام وتحادُّه.

وقام في أيامنا فريق ينادي بتقليد العالم الغربي، والسير في الطريق الذي سار فيه، غير مفرقين بين ما يحسن أخذه، وبين ما لا يجوز أخذه، فهم يرون أنَّنا لن ننهض حتى ننبذ ديننا، ونسير في مسار العالم الغربي ولو اقتضى هذا أن ننسلخ من جلودنا ونلبس جلودهم، وما هذا الانبهار بالحضارة الغربية إلا ثمرة لجهل الأمة بدينها ومركزها، وهذا جعلها تنظر إلى الأمم التي غلبتها نظرةً فيها كثير من التعظيم والتبجيل، وأخذت تقلد الأمم الغالبة في عوائدها، وتلك سنَّة من سنن الله في خلقه عقد لها ابن خلدون في مقدمته فصلا فقال: «فصل: المغلوب مولع بتقليد الغالب».

وفي الحديث في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعاً بذراع، حتى ولو دخلوا جُحْر ضَبٍّ

لتبعتموهم. قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟».

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون من قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع. قيل له: يا رسول الله كفارس والروم؟ قال: من النَّاس إلَّا أولئك؟».

وقد تسلَّم الذين صُبغُوا بالثقافة الغربية مراكز التوجيه في ديار الإسلام، وصَبَغُوا الحياة فيها بالصبغة الغربية، وتأثر بهم الناشئة كثيرا.

ثانيا: الفرقة التشريعية:

لا نعني بالفرقة هنا الاختلاف الذي وقع بين السلف في فقه النصوص بسبب تفاوت العلماء في الفهم والإدراك، كما لا نعني به الاختلاف الناشيء عن عدم وجود نصّ، فهذا النوع من الاختلاف لا يسبب فجوة بين المسلمين، وقد وقع هذا النوع من الاختلاف بين الصحابة في حياة الرسول ﷺ ولم ينكره المصطفى على أصحابه، فإنه اختلاف طبيعي، تأبى طبيعة البشر أن لا يُختلف فيه.

والاختلاف المذموم هو الخلاف الناشيء عن الإعراض عن نصوص الكتاب والسنة تقليدا لآراء الرجال، أو الإعراض عن النصوص اتباعاً للهوى.

وقد نشأت في المسلمين دعوات كثيرة تهدف ـ بقصد أو بغير قصد ـ إلى زحزحة نصوص الكتاب والسنة عن مرتبة الصدارة، وردِّ الأمر إلى عقول الرجال والقواعد التي أفرزتها تلك العقول.

وقام في المسلمين من يدعي أنَّ أكثر نصوص الكتاب والسنة لا تصلح للاستدلال لأنها ظواهر وعمومات لا تفيد اليقين، وأخذ هؤلاء ينادون بالرجوع إلى القواعد العقلية لأنَّها وحدها التي تفيد اليقين.

وقام في المسلمين من نادى بالاقتصار على القرآن وحده ونبذ السنة النبوية، وسمَّى هؤلاء أنفسهم ـ زورا وبهتاناً ـ بالقرآنيين. وكذبوا فلو كانوا قرآنيين لأخذوا بالسنَّة التي يلزمهم القرآن بالأخذ بها، وبعض الفرق الضالَّة رفضت السنَّة رفضا كليّا، وجوَّز أصحاب هذا المذهب على الرسول ﷺ الخطأ في غير القرآن، ومعنى ذلك أنَّ كلامه ليس بحجَّة، وقد خالف الخوارج والمعتزلة أهل السنة في

كثير مما أجمعوا عليه، ولذلك جوَّزت الخوارج الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها، وذهبوا إلى أن الحكم الواجب في حقِّ الزاني هو جلد مائة جلدة، لا يفرِّقون بين المحصن وغير المحصن مستدلين بالقرآن ورادِّين للحديث.

وذهب المعتزلة إلى ردِّ أحاديث الآحاد مطلقا، فهم يقبلون المتواتر دون الآحاد، وإن كان في أصحِّ كتب الحديث، زاعمين أنَّ الآحاد ظنّي الثبوت والدين لا يقوم على الظن. وذهب آخرون إلى أنَّ المرفوض هو أحاديث الآحاد في العقيدة، وقد زعموا أنَّ أحاديث الآحاد ظنية والعقيدة لا تقوم على الظن.

وأعاد بعض المغرضين في هذا العصر القضية جذّعة، فطعنوا في سنَّة الرسول ﷺ ورواتها، وأقاموا عقولهم حكما فيما يأخذون ويدعون من سنَّة رسول الله ﷺ.

وفريق آخر احتج بما ليس بحجَّة في الدين، ومن هؤلاء الذين يعتمدون في إثبات العقائد والأحكام على الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وبذلك يقرِّرون عقائد وأحكاماً ليست من الدين، وينسبون إلى رسول الله ﷺ ما لم يقله، وقد حذَّرنا رسولنا من مثل هذا أشدَّ التحذير، ففي الحديث

الصحيح: «من حدَّث عني بحديث يُرى أنه كذب، فهو أحد الكذَّابين»[1] وتوعد الرسول ﷺ الكاذبَ عليه بالنَّار، فقد صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «من كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النَّار».

ومن الفرقة التشريعية الافتراق بسبب التقليد، فكثير من المقلِّدة يرفضون الأخذ بنصوص الكتاب والسنَّة التي تخالف قول الإمام الذي يقلِّدونه بدعوى أنَّ إمام المذهب أعلم منهم بالنصوص، وقد بلغ الأمر ببعض المقلِّدين إلى القول بأن كلَّ نصٍّ يخالف المذهب فإنَّه إما منسوخ أو مؤول.

وقد أنشأت العصبيَّة المذهبيَّة فُرقة بين الأمة فانقسمت الأمة إلى مذاهب، كلّ فريق يناصر مذهبه، ويغلو في تقديس إمام المذهب، ويغضُّ من المذاهب الأخرى وأئمتها وفقهها، ونشأ من هذا الخلاف مناظرات وصراعات وقتال في بعض الأحيان.

وكان الواجب أن يبقى الخلاف في دائرة فقه النص، وأن يكون رائد الجميع الوصول إلى الحقِّ من خلال النظر

---

(١) الكذابان: منشيء الكذب وناقله

في النصوص، وأن يكون فقه العلماء السابقين ثروة تساعدنا على الوصول إلى هذا الهدف.

وقد رأينا بعض التجمعات الحديثة في هذا العصر يلزم أصحابها أتباعهم بما تتبناه الجماعة.

وفيما تبنته تلك الجماعة أمور مخالفة للكتاب والسنة، فإذا استمسك أحد أتباعها بما علمه من نصوص الكتاب والسنة المخالف لرأي تلك الجماعة طردته الجماعة من صفوفها.

وقد زاد بلاء الفرقة التشريعية في هذا العصر، عندما أقصيت الشريعة الإسلامية عن الحكم في ديار الإسلام، واستبدلت بها القوانين الوضعية، وحَكَّم المسلمون في رقابهم حكم الطاغوت، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثالثا: الفرقة السياسية:

الأمة الإسلامية أمة واحدة، يجمعها إطار سياسي واحد، ويحكمها حاكم واحد، هكذا علَّمنا الإسلام.

وافترقت الأمة الإسلامية في نهاية حكم الخلفاء الراشدين، ولكنَّها استردت وحدتها، وأول فرقة سياسية

وقعت واستمرت كانت بعد انهيار الدولة الأموية، حيث حكم العباسيون في الشرق، وحكم الأمويون في الأندلس، ولكن لم تمض بضع مئات من السنين حتى تفرقت كلتا الدولتين إلى دول كثيرة، وقام على كلٍّ دولة حاكم وزعيم، إلا أنَّ الخليفة بقي في عاصمة الخلافة رمزا للكيان السياسي الذي يحكم الأمة الإسلامية، ولكنَّه لم يكن يملك من الأمر الكثير، وكان يُحْكَمُ باسمه في كثير من الأحيان، بل كان يُعزلُ ويولَّى غيره بإرادة الذين لا يريدون بالأمة خيرا.

ثمَّ إنَّ الرمز الذي كان يلوح في عاصمة الخلافة زال وتلاشى، غير أنَّ الاسم الذي يمثل الكيان السياسي للمسلمين استمرَّ، ولم يُقضَ عليه إلا منذ عهد قريب عندما اجتمعت على تركيا المسلمة جيوش الأعداء ومكر المنافقين، ولم يرضوا منها إلا أن تتنازل عن الشريعة التي كانت تحكم بقاياها تلك الدولة، واشترطوا عليها إلغاء الخلافة الإسلامية، ومنصب شيخ الإسلام، وما تركوها حتى غيَّروا الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية. ووضعوا القبعة فوق رؤوسهم بدل العمامة، وسلخوا الولايات الإسلامية التي كانت تابعة لدولة الخلافة، وتجزأ العالم الإسلامي إلى دول كثيرة ضعيفة هزيلة، ونالت هذه الدول استقلالها ولكنها لم

تنهض من كبوتها، ولم تملك زمام الأمور في بلادها.

وهذه الطريقة التي سلكها أعداؤنا معنا طريقة قديمة معروفة، استخدمها المستعمرون منذ ألوف السنين، فقد ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» أن الإسكندر المقدوني اليوناني عندما غلب على ملك الفرس «دارا بن دَارا» وأذلَّ مملكته وخرَّب بلاده، و استباح بيضة قومه، ونهب حواصله، وفرَّق شمل الفرس شَذَر مَذَر، وضع خطة تُبقِي الفرس ضعفاء لا تقوم لهم قائمة، كي يبقى له السيطرة عليهم، ويأمن من انتفاضتهم عليه ومحاربتهم له.

يقول ابن كثير موضحا ما فعله هذا الرجل الداهية بالفرس: «عزم أن لا يجتمع لهم في إقليم من أقاليم الأرض ما بين عربها وعجمها، فاستمرَّ كلُّ ملك منهم يحمي حوزته، ويحفظ حصَّته، ويستغلَّ مَحِلَّته، فإذا هلك قام ولده من بعده، أو أحد قومه، فاستمرَّ الأمر كذلك قريبا من خمسمائة سنة، حتى كان أزدشير بن بابك من بني ساسان بن بهمن، فأعاد ملكهم إلى ما كان عليه، ورجعت الممالك برمتها إليه، وأزال ممالك ملوك الطوائف، ولم يَبْقَ منهم تالد ولا طارف..»[1].

---

(١) البداية والنهاية: ٢/ ١٨٣.

قارن ما فعله الإسكندر في الماضي البعيد بما فعله الكفار بدولتنا الإسلامية تجد التخطيط واحدا والنتائج واحدة، بل إنَّ الحال معنا أشدُّ وأقسى، فإنَّنا لم نعط الاستقلال إلا بعد أن أُخذت علينا العهود والمواثيق بأن لا نعود إلى تحكيم الشريعة الإسلامية، ولا نقيم الكيان السياسيَّ الإسلاميَّ، كتب اللورد كرومر في الفصل الأخير من كتابه «مصر الحديثة» الصادر في سنة (١٩٠٨م) «إن انجلترا كانت مستعدة لتمنح الحريَّة السياسيَّة النهائيَّة لكلٍّ ممتلكاتها المستعمرة حالما يكون جيل من المفكرين والسياسيين المشحونين بمُثُلِ الثقافة الإنجليزية عن طريق التربية الإنجليزية مستعدا للاضطلاع بالأمور، ولكنَّ الحكومة الانجليزية لن تسمح بحال من الأحوال بقيام دولة اسلامية مستقلة، ولو للحظة واحدة».

المبحث الثالث
أثر إثارة النعرات والعصبيات
في الفرقة السياسية

ولا يفوتني - قبل أن أنهي الحديث عن الفرقة والاختلاف - أن أتعرض إلى مرض خطير كان ولا يزال

يعمل على تفتيت وحدة المسلمين السياسية، ألا وهو العصبيات التي تثور بين الفينة والفينة في المجتمعات الإسلامية.

إن الإسلام جعل الرابطة التي تجمع المسلمين وتوحِّدهم هي الإسلام. وقد قامت دولة الإسلام على أساس الجامعة الإسلامية، وانصهرت في بوتقة هذه الجامعة العصبيَّة للجنس واللون والوطن والنسب، وأصبح التنادي بين المسلمين للتجمع على أساس غير أساس الرابطة الإسلامية يُعدُّ دعوة جاهلية مقيتة، فقد قال الرسول ـ ﷺ ـ لأبي ذر عندما عَيَّر رجلا بسواد أمّه: «إنَّك امرؤ فيك جاهلية» وقد حذَّر الرسول ﷺ من هذه العصبيات المقيتة، ففي حديث جندب بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قُتِل تحت راية عميَّة يدعو لعصبيَّة، أو ينصر عصبيَّة فقتلته جاهلية». أخرجه مسلم والنسائي.

وفي سنن أبي داود عن جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ليس مِنَّا من دعا إلى عصبيَّة، وليس مِنَّا من قاتل على عصبيَّة، وليس مِنَّا من مات على عصبيَّة».

وعندما اختلف رجلان من المهاجرين والأنصار فتناديا يا للمهاجرين، يا للأنصار، وهبَّ كلُّ فريق لنصرة صاحبه، قال الرسول ﷺ: «ما هذا؟ أدعوى أهل الجاهلية؟» رواه مسلم في صحيحه. وفي رواية أخرى عند مسلم: «دَعُوها فإنَّها منتنة».

إنَّ الإسلام لا يُلْغِي الانتماءات للأوطان والقبائل والشعوب، ولكنَّه لا يسمح أن تجعل لغير ما أرادها الله له، إن حكمة الله اقتضت تقسيم البشر إلى شعوب وقبائل للتعارف لا للتفاضل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[1].

إن الآصرة التي تجمع المسلمين هي الإسلام، وفي ظلِّ هذه الآصرة تتجمع القبائل والشعوب، وسَعي المرء في شأن قومه وأهله من الفضائل التي يَحمد الإسلام أصحابها، ولكنَّ الإسلام لا يرضى أن ينصر المرء قومه أو بني عشيرته، أو الذين يشاركونه في اللون محقين أو ظالمين، إن الإسلام قبل مقولة أهل الجاهلية: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوما» ولكنه رفض التفسير الجاهلي لهذه المقولة، وأعطى تفسيراً

(١) الحجرات: ١٣.

مضادا لتفسير الجاهلية، ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما، إن كان ظالما فلينهه، فإنه له نصر، وإن كان مظلوما فلينصره».

إن نصرة المرء قومه عصبية لهم جريمة كبرى في المجتمع الإسلامي، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من نصر قومه على غير الحق، فهو كالبعير الذي رُدِّي في مَهْوَاة، فهو ينزع بذنبه» والمَهْواةُ: الحُفْرةُ من الأرض، وكل مهلكة مهواة، والتردِّي الوقوع من علو.

وقد ثارت العصبيات في القرن الأخير، وحطَّمت الرابطة الإسلامية والدولة الإسلامية، دعا الأتراك إلى التركية، والأكراد تنادوا إلى الكردية، وفعل مثل ذلك البربر والعرب، ثم جاءت الدعوة إلى الأوطان، فكلُّ قوم يعيشون على بقعة من الأرض أقاموا عصبية منتمية إلى تلك البقعة، وقامت دعوات تدعو إلى الاعتزاز بالفرعونية والآشورية والفارسية، وقطع الترك كثيرا من الحبال التي كانت تربطهم بالإسلام، وأصبح العالم الإسلامي على الصورة الكئيبة التي نراها عليه اليوم.

الفصل الثالث
طريق الارتقاء بالأمة الاسلامية

المبحث الأول
الوحدة هي الطريق

إذا كانت الفرقة هي طريق الانحطاط، فإن الوحدة هي سبيل الارتقاء وتبوء المكانة الفاضلة من جديد.

والوحدة الإسلامية على أساس من الإسلام أمل القلوب المسلمة الصادقة في كلِّ مكان، ذلك أنَّ الإسلام، يغذي أتباعه دائما وأبدا بأنَّهم إخوة في دين الله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]. ويجعل الأمة الإسلامية أمة مترابطة ترابط الجسد الواحد، ففي صحيح مسلم عن النعمان بن بشير عن رسول الله ﷺ قال: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد

(١) الحجرات: ١٠.

بالسهر والحمّى». وفي رواية أخرى عند مسلم: «المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه، اشتكى كلُّه، وإن اشتكى رأسه، اشتكى كلُّه».

وشبههم في حديث آخر بالبنيان المرصوص، ففي صحيح مسلم عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضا».

فالأحاديث تصوِّر المجتمع الإسلامي بالجسد الواحد، الذي يخفق فيه قلب واحد، وتسري فيه روح واحدة، ويتأثر كلُّ عضو فيه بما يصيب بقية الأعضاء، أو هو كالجدار الذي تجتمع لبناته لتشكل فيما بينها وحدة واحدة متماسكة متراصّة.

المبحث الثاني
أصول الوحدة الإسلامية

ونحن إذ ننادي بالوحدة الإسلامية لا نريدها وحدة على غير أصول، لا نريدها وحدة تجمع شتاتاً مختلفاً متناقضا، إنَّما نريدها وحدة صادقة تقوم على أصول قويّة ثابتة، ويلخص هذه الأصول قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ

جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[1].

وسنحاول أن نبرز أهم الأصول التي تقوم عليها وحدة الأمة.

الأصل الأول: الانتماء للإسلام دون سواه:

العالم اليوم بحر محيط يموج بالدعوات والأفكار، وتقوم هذه الدعوات على مناهج ونظريات أتعب أصحابها أنفسهم في تزيينها وتزويقها، ويجب أن يجهد دعاة الإسلام أنفسهم في الدعوة إلى نبذ جميع المذاهب والمبادىء التي غزت ديار المسلمين وعقولهم، وعلى الدعاة أن يحصِّنوا المسلمين ضد هذه السموم التي تبثها مختلف وسائل الإعلام صباح مساء.

لقد فقد كثير من أبناء المسلمين اليوم هويتهم، ومسخت شخصيتهم بفعل التضليل المستمر الذي يمارسه شياطين الجنِّ والإنس بمختلف الوسائل، وسبيلنا للوحدة الصادقة هو الدعوة إلى الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة،

---

(١) آل عمران: ١٠٣.

والاعتزاز بالانتساب إلى هذا الدين، ونبذ كلِّ ما يخالفه ويضادُّه، وهذا النهج هو نهج أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، الذي حرص على إقراره في بنيه وذريته، وهو المنهج الحق الذي أمرنا الله بالتزامه، وحكم على من أعرض عنه بالسفه والضلال، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾[1].

هذه هي ملة إبراهيم، وهي توحيد الخالق جل وعلا بعبادته وحده لا شريك له، وإقامة الحياة وفق منهج الله، والاعتزاز بهذا المنهج وإقراره في واقع الحياة، ورفض المبادىء المنحرفة الضالة التي اخترعها البشر وجعلوها أديانا يقيمون حياتهم وفقها، ويعتزون بالانتماء إليها.

(١) سورة البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٣.

إن الإسلام منهجُ حياة، والعبودية لله معلم كبير في حياة المسلم، والمسلمون وفق هذا المنهج والفهم يشكِّلون أمة واحدة في مقابلة التجمعات البشرية.

والمسلم الصادق يعتزُّ بالانتساب إلى الإسلام ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1] نصَّ على أنَّ أفضل الناس هم الذين يعلنون انتسابهم إلى الإسلام.

وكثير من المسلمين اليوم فقدوا انتماءهم، فأخذوا يبحثون عن عقائد ومذاهب وأقوام ينتسبون إليها، وآن لنا أن نرفع الراية التي كان أسلافنا ينتسبون إليها، ألا وهي الإسلام، لا راية الأوطان، أو الأقوام أو الأحزاب أو التجمعات الضالة.

التوحيد والانتساب إلى الإسلام ملة إبراهيم، وقد أمر الله رسوله باتِّباع ملة إبراهيم: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾[2]. ونحن أولى الناس بإبراهيم بعد اتباعه ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) سورة فصلت: ٧٣.

(٢) سورة النحل: ١٢٣.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

الأصل الثاني: توحيد مصدر الهداية:

والأصل الثاني توحيد مصدر الهداية، وهذا لازم للأصل الأول، فما دمنا قد آمنا بأنَّ هذا الدين من عند الله، أنزله لهداية البشر للتي هي أقوم، فيجب أن نحلَّ هذا الدين في المرتبة التي يستحقُّها في هذا المجال.

إنّ جميع الدعوات والمذاهب والأديان التي يموج بها عالم اليوم يَدَّعي أصحابها أنَّهم يملكون إكسير السعادة، وهداية البشر للتي هي أقوم، ونحن نقول كما علمنا الله أن نقول: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾[2].

إنَّ مصدر الهداية الوحيد كتاب الله وسنة رسوله، واتِّباع أهل الكتاب وأصحاب الدعوات الباطلة يقود إلى الرِّدة والكفر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3]

---

(١) سورة آل عمران: ٦٨.

(٢) سورة آل عمران: ٧٣.

(٣) سورة آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠١.

ومتى فقهنا هذه الحقيقة التي قرَّرها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾[1] وفَّرنا على أنفسنا جهودا كثيرة في تلمُّس الهداية في الكتب السماوية المحرَّفة، وفي نظريات البشر وأفكارهم المتضاربة المتعارضة، وسرنا في الطريق المرسوم، ندعو البشر إلى طريقنا، ونحاكم أفكارهم وعقائدهم إلى موازين الإسلام، وإذا ما جاؤوا يعرضون بضاعتهم علينا رفضناها، لأنَّنا نعلم أنَّ في بضاعتهم دخنا، وهم لا يرضون عنا حتى نسلخ من ديننا ونأخذ دينهم ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[2].

وقد وقف الرسول ﷺ في وجه تلمُّس الهداية من الأديان المحرَّفة بقوة، وشدَّد النكير على من ذهب هذا المذهب، ففي مسند أحمد عن عبدالله بن جابر قال: «جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي يهوديٍّ من بني قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغيَّر وجه رسول الله ﷺ.

---

(1) سورة آل عمران: ٧٣.

(2) سورة البقرة: ١٢٠.

قال عبدالله بن ثابت: قلت له: ألا ترى وجه رسول الله!! فقال عمر: رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا.

قال: فسُرِّي عن النبي ﷺ وقال: «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثمَّ اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنَّكم حظِّي من الأمم، وأنا حظُّكم من النبيين».

ولذلك فإننا ننظر - اليوم - بكثير من الريبة والحذر إلى ما يسمَّى بمؤتمرات التقريب بين الأديان والتي تعقد في شتى أنحاء العالم، ويحضرها علماء مسلمون وغير مسلمين يبحثون في الالتقاء والتقارب بين الإسلام والنصرانية، ويبحثون في إزالة سوء التفاهم بينهما. إنَّنا نرفض هذه المؤتمرات، لأنَّها تضع الإسلام الدين الحقّ والنصرانيَّة الدين المحرَّف الباطل في مرتبة سواء، ونرفضها لأنَّ الإسلام جاء مهيمناً على النصرانية وغيرها من الأديان، وليس هناك مجال للتقريب بين دين محرِّف مغيَّر مبدِّل والدين الحق.

إننا نقف في مجامع النصارى لا لنقرب بين دينهم الباطل وديننا، وإنما لنقول لهم: دعوا هذا الدين، ودعوا الشرك بالله والكفر به، وتعالوا إلى الدين الذي بَشَّر به موسى

وعيسى، دين الله الخاتم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

إننا نعدُّ قبول العلماء المسلمين بحضور هذه المؤتمرات انحرافا يضرُّ بهم وبدينهم وعقيدتهم، ولا ينفع إلا الذين قالوا اتخذ الرحمن ولدا، لأنَّهم بذلك يجرجروننا إلى باطلهم، ويوقعوننا في شباكهم.

في عام واحد عُقِدَتْ ثلاثة مؤتمرات للبحث في التقارب بين الإسلام والنصرانية، وقد أمّ هذه المؤتمرات مئات من العلماء المسلمين.

ففي شهر ابريل سنة ١٩٧٤ عقد مؤتمر من هذا النوع في باريس التقى فيه علماء مسلمون ورجال فكر أوروبيون للبحث في التقارب بين الإسلام والمسيحية، وزار الوفد الإسلامي الفاتيكان وألقى هناك محاضرتين، وقد مُهِّد لهذا المؤتمر منذ عام ١٩٧٢، وقد وصفت الصحف هذا المؤتمر بأنه مهم.

وفي شهر سبتمبر من العام نفسه ١٩٧٤ انعقد المؤتمر الإسلامي المسيحي في مدينة «قرطبة» وقد كانت مهمة المؤتمر تقريب وجهات النظر بين العالمين المسيحي والإسلامي،

وتزايد موجة السعي من أجل إزالة الخلافات وسوء الفهم الذي قد يكون قائما بين الدينين بالنسبة للمعنيين بالأمر والرأي العام.

وفي شهر نوفمبر من ذلك العام كان المؤتمر المسيحي الثالث في مدينة «تونس».

وقد عقد مؤتمر إسلامي في مدينة لاهور في باكستان في ذلك العام في شهر فبراير (١٩٧٤). ومع كونه مؤتمرا إسلامياً في الظاهر إلا أنه قد حضره ممثلون من نصارى لبنان، وقد أشاد المؤتمر بالتعاون الإسلامي المسيحي.

وهذه المؤتمرات لم تكن الأولى ولا الأخيرة فقد عقد قبلها مؤتمرات وبعدها مؤتمرات على النمط نفسه.

وقد تحدَّث عن شيء من بلايا هذه المؤتمرات العلامة الباحث الدكتور محمد محمد حسين في كتابه «حصوننا مهددة من داخلها» ص (٣٢١) عندما كشف عن زيف ودجل المؤتمر الإسلامي المسيحي الذي دعت إليه جامعة برنستون ومكتبة الكونغرس الأمريكي في صيف عام ١٩٥٣. ونشرت قسما من بحوثه مؤسسة فرانكلين الأمريكية. كما كشف الدكتور الأهداف الخبيثة لذلك المؤتمر.

إنَّ الذين يؤمون تلك المؤتمرات لا يدركون الدسيسة والمكيدة التي أوقعهم أعداؤهم فيها، وآخرون يعلمون ذلك ولكنَّهم يريدون بالإسلام والمسلمين شرا، وعندما يوجّه إليهم اللوم لا تكون إجابتهم إلا كإجابة إخوانهم من قبل: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾[1]. وذلك بالتقارب بين الإسلام والمبادىء البشرية، وقد فضح القرآن هذا الصنف من الناس، وبيَّن أن هؤلاء أتباع الطواغيت همُّهم إفساد البلاد والعباد وصدُّ الناس عن دين الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾[2].

إننا نعلن لبني قومنا أنَّ الهداية من الضلال لن تكون في غير الكتاب والسنة، وهذا ليس تقولا من أنفسنا، ولكنه

---

(١) سورة النساء: ٦٣.

(٢) سورة النساء: ٦٠ - ٦٣.

صريح كلام الرسول ﷺ، ففي الموطأ عن أنس بن مالك وفي مستدرك الحاكم عن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلُّوا ما إن تمسكتم بهما كتاب الله، وسنة رسوله».

وفي ختام هذا الموضوع أحبّ أن أقرر ثلاث قضايا:

الأولى: لا يجوز طلب الهداية من الأديان المحرَّفة والمذاهب الباطلة وقد أسلفنا القول في هذا الموضوع.

الثانية: وهذا لا يعني أنه لا يجب علينا دراسة هذه المذاهب والأديان لبيان عوارها والردِّ عليها، ويدُلنا على صحة هذا مناقشة القرآن لأهل هذه المذاهب والأديان، وقد ألَّف علماؤنا مؤلفات كثيرة في هذا المجال.

الثالثة: أن العلوم الدنيوية المختلفة كالطبِّ والهندسة يجب علينا دراستها والاستفادة من جهود البشر فيها، ولا تدخل دراستها في المحذور.

الأصل الثالث: وحدة العقيدة:

لا يمكن أن تقوم وحدة المسلمين ما لم تجمعهم عقيدة واحدة، والعقيدة تشكِّل في البناء الفردي والاجتماعي القاعدة التي تقوم عليها الأعمال والعلاقات والأخلاق، فإذا

كانت العقيدة مشوّهة أو مزورة فإنّ البناء لا يستقيم، ولا يكاد البناء يواجه الأعاصير والفتن حتى ينهار، بل إنّ البناء قد لا يقوم من أساسه، وقد شهد عالمنا العربيُّ والإسلاميُّ مزيدا من الفرقة والانقسام، والعقائد الموروثة والحادثة كثيرة، وقد انتشرت في الأمة الإسلامية انتشارا كبيرا، وانقسمت الأمة بناء على ذلك في القديم والحديث إلى فرق وجماعات، وقام بينها العداء والخصام والحروب.

قد يقال: من أين تأتي بالعقيدة الإسلامية التي تصلح لجمع شتات المسلمين؟ الجواب: أنَّ العقيدة الإسلامية الصافية منصوص عليها في الكتاب والسنة، ويمكن التدليل على كلِّ أصل من أصولها، أو جزئية من جزئياتها، ثم إنَّ السلف الصالح الذين استقاموا على عقيدة الإسلام الحق دوَّنوا هذه العقيدة تدويناً يميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال، ومن هؤلاء العلاَّمة الطحاويُّ دَوَّن عقيدة عرفت باسمه، شرحها محمد بن محمد بن محمد بن أبي العزِّ الحنفي، ولم يقف الأمر عند هذا، فقد دوَّن العقيدة الصحيحة كثير من العلماء من قبله وبعده، منهم الإمام أحمد وابن تيمية، والشوكاني، والاسفرائني وغيرهم.

وأحب أن أنبه إلى أنَّ هذه العقائد قواعد وضوابط

تعصم من الخطأ في مجال الاعتقاد وهناك لون آخر من العقيدة يبعث العباد إلى العمل بما جاءهم من عند الله، مخلصين دينهم لله، وهذا اللون هو الذي يجعل المسلم قوَّة حية متحركة عاملة، وهذا اللون من العقيدة حتى يعطي ثماره لابد من دراسته من خلال النصوص.

الأصل الرابع: جعل الكتاب والسنة محور الدراسة ومصدر التشريع:

لابد أن تعودَ المكانة الكبيرة للكتاب والسنة، فقد كانا محور الدراسة والتعليم والتشريع، ولا يجوز استبدالهما بآراء الرجال، ولا يجوز إلغاؤهما بحجة أنَّ الفقه الذي دوَّنه الأئمة يكفي في هذا الجانب.

ليس معنى ذلك أننا نلغي فقه الأئمة فذلك وَهَم، بل نرى أنَّ فقه الأئمة هو محاولة دائبة لفقه الكتاب والسنة، فنحن ندرسَ الكتاب والسنة، وندرس كيف فقه علماؤنا النصوص، واستنبطوا منها الأحكام، أما الفقه المجرد الذي لا يصطبغ بالكتاب والسنة، فإنه يبعدنا عن النبع الأصيل.

ولا يجوز إقصاء الكتاب والسنة عن دائرة الدراسة والفقه، بحجَّة أنَّ ذلك مهمة المجتهد وحده، ولاشك أنَّ

هذا مزلق خطر، فإنَّ الذي لا يدرس الكتاب والسنة لن يكون عالما بهما، ولكن ليس كلُّ من درس آيات وبضع أحاديث أصبح عالما يحق له الإفتاء.

إنَّ مَثَلَ العالم وطالب العلم مثل الطبيب ودارس الطب، فطالب الطب يُعطي العلم الذي يؤهله لعلاج الناس وإجراء العمليات الجراحية لهم، ولكنه لا يُؤذن له في العلاج وإجراء العمليات في السنة الأولى التي يدرس فيها الطب، غير أنه يترقى في ذلك حتى يحصِّل قدرا صالحا من العلوم الطبية، ثمَّ يتدرب على أيدي المتخصصين من الأطباء الكبار، ثم يمارس مهنة الطب، وقد يواصل دراسته وتنمو خبرته بعد ذلك، حتى يستقلُّ في بعض القضايا، وتصبح له نظرة اجتماعية يستقلُّ بها عن غيره، ولو منعنا طلاب الطب بعد تخرُّجهم عن العلاج والممارسة لما كان هناك أطباء كبار.

وعالم الشريعة عليه أن يدرس الشريعة من مصادرها، وأن يتفقه في هذا الدين، ويدرس العلوم الخادمة لعلم الشريعة ومن ذلك علم اللغة العربية، ثم لا يزال يترقى في هذا المجال حتى يبلغ مبلغ العلماء المؤهلين.

وهذا الطريق ليس بالطريق الصعب المستحيل، ولذلك

لا يجوز صدُّ الناس عن السير في طريق العلم الشرعي، كما لا يجوز لمن كان في البدايات أن ينصِّب نفسه عالما ومفتيا.

الأصل الخامس: إقامة دولة الإسلام وإرجاع الخلافة الراشدة.

لا يمكن أن تنتهي فُرقة المسلمين السياسية إلا بإقامة دولة إسلامية راشدة تقيم فينا دين الله وشرعه، وتحكمنا بالإسلام، وتقيم فينا وفي العالم موازين الإسلام وقيمه، وتسمع العالم صوت الله، فتقيم بذلك الحجة على العالمين، وتقوم بواجب البلاغ الذي كلفنا به، وتحمي حمى الإسلام وتحرس هذا الدين، كما تحمي ديار الإسلام، وتحفظ حرمات المسلمين، وتردُّ كيد الكائدين، وترفع الظلم عن المظلومين، وتردُّ هذا البلاء الذي رمانا به أعداء الإسلام، هذا البلاء الذي جعلنا في ديار المسلمين أذلَّة، نخشى إن قلنا كلمة الحق أن تقطع منا الرؤوس، وتسلب منا الأموال، ويؤذى أهلنا وأحبابنا.

إن دولة الإسلام هي المؤهلة لردِّ هذا البلاء الذي جعل ديار الإسلام مرتعا لأعداء الإسلام، فصالوا وجالوا من غير رقيب وحسيب. لقد قسموا ديارنا فجعلوها دولا، وجزَّؤوا

أمتنا فجعلوها أمما، بعد أن كنّا دولة واحدة وأمة واحدة، إنّنا نريد دولة الإسلام كي نتوحّد في ظلّها، لنعود مرة أخرى دولة واحدة وأمة واحدة، تختفي في ظلّها النعرات الجاهلية، والعصبيات المقيتة التي فرّقت شملنا، وأذهبت قوتنا، وملّكت منا الأعداء.

أنا أدرك أنّ إقامة الدولة الإسلامية لا يتحقق بمجرد الأماني، وأن الطريق إليه ليس مفروشة بالورود والرياحين، وأنّ الطريق إلى تحقيق ذلك تعترضها عقبات جسام، أنا أعلم أنّ قيام الدولة الإسلامية يقتضي من المسلمين أن يبذلوا في سبيل تحقيقها أوقاتهم وأموالهم وأنفسهم، وأن يرضوا بالتشريد حينا من الدهر، كما يرضوا بالعذاب والسجون، فإنّ لإقامة الدولة ضريبة وأية ضريبة، ذلك أنّ دولة الإسلام تبطل مخططات خصوم الإسلام، التي عملوا على تحقيقها دهراً طويلا، بحيث جعلت لهم السيطرة على بلادنا وشعوبنا ومقدّراتنا، وتبطل امتيازات المسلّطين في ديارنا، كما تبطل مصالح الطبقة التي تأخذ ما تأخذ بالباطل، فإذا جاء الإسلام وأعمل حكم الله أوقف نهب ثروات الشعوب، وسوّى بين المسلمين، وحكم بالعدل، وجعل العزة لله، ومن هنا يحرص أعداؤنا والظلمة المسلطون

علينا أن يخنقوا صوت الإسلام الذي ينادي بالعودة إلى إقامة خلافة راشدة تُحكِّم شرع الله، وتقيم دين الله.

أنا أعلم أن الصعوبات هائلة والعقبات كثيرة، واقتحامها لا يكون بمؤتمر يعقد، ولا اجتماع يتبادل فيه الرأي، ولا بمحاضرة تلقى، ولكننا مع ذلك كلّه ننادي بإقامة هذه الدولة، ونوقن أنَّ أبناء الإسلام الذين رضوا بالله ربّاً وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا سيقدِّمون الثمن، ثمن إقامة الدولة الإسلامية، وهذا الذي سيقدِّمونه ليس أمرا مندوبا إليه، يمكن أن يقوم به المسلمون كما يمكن أن يغضُّوا الطرف عنه، فالعقيدة الراسخة في أعماق قلوبنا، والتي تشكل فينا قاعدة الدِّين الذي رضينا به، كما تعتبر بحق أساس الإسلام والإيمان لا ترضى أن نعيش هكذا من غير راع يرعى المسلمين، ولا دولة تنتظم أمورهم، وتحرسهم، وترفع صوت الله لتسمعه العالم أجمع.

إن عقيدتنا تقول لنا: إنَّ الله هو حاكم هذا الكون، الكون كلِّه: أرضه وسمائه، برِّه وبحره، حيوانه ونباته، نجومه وشمسه وقمره، وكذلك هو الحاكم للتجمعات البشرية فوق ظهر الكرة الأرضية، والفرق بين البشر وغيرهم أنَّ البشر يتحاكمون إلى شرع الله باختيارهم، أما

بقية الكائنات فإنّها لا تستطيع أن ترفض أمر الله، فالله يريدنا أن نتخذه إلها وربا وحاكما ونرضى بذلك، ونخضع لعظمته ونرضى بشريعته، لأنه خالقنا ورازقنا ومحيينا ومميتنا، وإليه مآبنا، فهو المستحقّ لأن يجعل حاكما، والله لا يرضى منا حتى نقيم دولة الإسلام التي تسلِّم مقاليد الحكم إلى الذين يجعلون التشريع لله تعالى، وتنبذ الطواغيت والظلمة الذين اعتدوا على سلطان الله ونازعوه في حكمه وقضائه، وقد قرر الإسلام بصورة واضحة هذه القضية ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١).

فالحكم لله والعبادة لله، ولا تجوز منازعة الله في حكمه، ولا يجوز صرف شيء من ذلك لغير الله، فالإيمان بالله يقتضي تحكيم شرع الله، ونبذ حكم الطواغيت والكفر بها ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢).

---

(١) سورة يوسف: ٤٠.

(٢) سورة البقرة: ٢٥٦.

فكلٌّ من ادعى الإيمان بالله فعليه أن يكفر بالطاغوت، فإن ادَّعى أنه مؤمن وهو يرضى بحكم الطاغوت فقد تناقض في دعواه، ووقف موقفا يتعجب منه، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[١].

إن المسلم لا يقف عند حدّ الكفر بالطاغوت، بل يتعدى ذلك إلى مصارعة الطاغوت ومغالبته وإقصائه عن مشاركة الله في حكمه ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[٢].

والطواغيت هم الذين نصبهم النَّاس، أو نصبوا أنفسهم آلهة ينازعون الله في حكمه، فالقول قولهم والأمر أمرهم، وكلمتهم هي العليا، وشرعهم هو المتَّبع، وقد يصل الحال إلى السجود لهم وعبادتهم، والله لا يرضى أن يشاركه أحد في حكمه ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾[٣]، أي لا يرضى

(١) سورة النساء: ٦٠.
(٢) سورة النساء: ٧٦.
(٣) سورة الكهف: ٢٦.

أن يشاركه أحد في حكمه، وفي القراءة الأخرى: ﴿وَلَا تُشْرِكْ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾(١)، أي لا تشرك أيها المؤمن مع الله غيره في حكمه، والقراءتان معناهما متلازم، وقد جعل الإسلام التحاكم إلى غير شرع الله تحاكماً إلى الجاهلية ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(٢).

وحكم على الذين لا يحكّمون شرعه المنزل ودينه العظيم بالكفر والظلم والفسق ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ

---

(١) سورة الكهف: ٢٦.

(٢) سورة المائدة: ٥٠.

هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[1].

هذه القضية (الحكم لله) عقيدة عند المسلمين، ولا يمكن تحقيق هذه العقيدة إذا بقيت مقاليد الحكم في عالم البشر بأيدي الطواغيت: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[2].

إننا لا نستطيع تحقيق الإيمان إلا بإقامة دولة الإسلام التي تقيم شرع الله في كلِّ شئون الحياة.

وعقيدتنا تجعل الإيمان بالرسالات وخاتمها الإسلام دافعا إلى إقامة الدولة الإسلامية، ذلك أنَّ طبيعة هذا الدين توجب إقامة الدولة الإسلامية، لأنَّ هذا الدين منزل من عند الله العلي القدير، والله لا يرضى أن تسود مناهج البشر وشرائع البشر عالم البشر، ويقصي دينه وشريعته، لقد أنزل الله دينه من أول يوم ليكون هو الأعلى ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ

---

(١) سورة المائدة: ٤٤، ٤٥، ٤٧.

(٢) سورة النساء: ٦٥.

رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[1].

وقد قرَّر الحق أنَّ طبيعة هذا الدين تأبى أن يخفت صوته، وتطمس معالمه، وتعلوه كلمة البشر ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾[2]. وأوجب على المسلمين الجهاد والقتال حتى ترتفع كلمة الله، وتكون الدينونة لله الواحد الأحد ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾[3]. ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا قامت دولة الإسلام، فجعلت الهيمنة في عالم البشر لهذا الدين، وهذه هي المهمة الكبرى المناطة بالدولة الإسلامية، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: جميع الولايات في الإسلام مقصودها أن يكون الدين كلُّه لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فإن الله تعالى إنما خلق الخلق لذلك، وبه أنزل الكتب، وبه أرسل الرسل، وعليه جاهد الرسول ﷺ والمؤمنون، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[4].

---

(١) سورة التوبة: ٣٣.

(٢) سورة التوبة: ٤٠.

(٣) سورة البقرة: ١٩٣.

(٤) سورة الذاريات: ٥٦.

وعقيدتنا تلزمنا بإقامة الدولة الإسلامية، لأنَّ إقامة الدولة أحد أحكام الشريعة الإسلامية، والشريعة الإسلامية هي التي تحقق العقيدة في واقع الحياة، فالدين ليس مجرد عقيدة تبقى حبيسة في صدور أصحابها ولكنَّها حياة دافعة تتحرك في الصدور وتنبعث بها النفوس، ثمَّ تتشكل في إطار يحكم الواقع وحياة البشر، وبذلك فإن الشريعة التطبيق الواقعي للعقيدة، ولا تزال تلحُّ على صاحبها كيما يجاهد ويناضل لإيجاد الصورة العملية التي تقتضيها تلك العقيدة.

خاتمة

مرحلة المخاض

تحدثنا فيما سبق عن المكانة الفضلى التي رفع الله إليها هذه الأمة بدينه المنزل ورسوله المبعوث رحمة للعالمين، ثمَّ بينا كيف انحطت هذه الأمة عن مكانتها بسبب فرقتها، وعقبنا على ذلك بالحديث عن الوحدة التي يمكن أن تعيد للأمة الإسلامية عزتها من جديد. ولكن يبقى أمر في غاية الأهمية، وهو الحديث عن الطريق التي تؤدي إلى بناء الأمة الإسلامية من جديد.

وأول ما يتبادر إلى الذهن في هذا هو الطريق التي سلكها الرسول ﷺ في بناء الأمة الإسلامية، والعَالِمُ بسيرة الرسول ﷺ يجد أنَّه عليه السلام كان يعنى بالدعوة إلى الله في وسط الكفار، فمن استجاب منهم لاحقه بالتربية والتقويم حتى يصبح لبنة صالحة، وكان هؤلاء يشكِّلون فيما بينهم وحدة مترابطة متعاونة، تعلم أنَّ مهمتها هي تغيير مجرى الحياة الإنسانية، وقد أوذيت هذه الفئة أذى شديداً

وعُذِّبت في دين الله، وهجرت الأوطان للبحث عن مكان آمن يقيهم الطغيان.

وفي هذا الوقت أخذ الرسول - ﷺ - يبحث عن مكان صالح لإقامة دولة الإسلام، فكان يعرض دعوته على القبائل مطالبا إياهم بنصره وحمايته حتى يبلِّغ دعوة الله، وكانت المهمَّة شاقّة وصعبة، ولكنَّ الله هدى بعض أهل يثرب إلى الإيمان بدعوة الإسلام، وانتشر فيهم الإسلام وهاجر الرسول ﷺ وصحبه إلى المدينة، وكانت هذه الهجرة إيذاناً بميلاد الأمة الإسلامية، وقيام دولة الإسلام الأولى، وهنا تحوَّل المضطهدون الصابرون على الظلم والأذى إلى مقاتلين، يدفعون الشرك والمشركين بالكلمة كما يدفعونهم بالسيف والرمح، ولم يزل شأن الدولة الإسلامية يعلو حتى هيمن الإسلام على العالم كلِّه، وأطاح بعرش كسرى، وأسقط تاج قيصر، وكان الدين الله.

واستمر الوجود السياسي الممثل في الخلافة الإسلامية قائما، كلما سقطت رايته في جانب من جوانب العالم قام في جانب آخر، وكان العلماء والدعاة يسدِّدُون الحكام ويقوِّمونهم، وكان الحكام يقتربون من الإسلام ويبتعدون عنه

بنسب متفاوتة ولكن الإسلام بقي باستمرار هو الدين الوحيد المهيمن على حياة المسلمين، والشريعة الإسلامية هي القانون الذي يتحاكم المسلمون إليه.

وآخر كيان سياسي جامع للمسلمين هو الدولة العثمانية التي انهارت على أيدي اليهود والصليبيين في الربع الأول من القرن العشرين، وكان انهيارها نتيجة محتمة في سنَّة الله، ذلك أنَّها أصيبت بأمراض وعلل كثيرة جعلتها ضعيفة في مواجهة أعدائها، ولو بقيت قوية قوة الجبال الرواسي لما عصفت بها الفتن، ودمَّرتها الرياح.

لا يكفي في تقويم الدولة العثمانية أن يدلِّل الباحثون على أن حكامها كانوا صالحين، وأن آخرهم وهو السلطان عبدالحميد كان مخلصا للإسلام، فهناك علل في الأمة كلِّها وفي السلطان نفسه تجعل استمرار تلك الدولة في الوجود مخالفا لسنة الله التي سنَّها في عباده.

لقد كانت تلك الدولة تمثل الإسلام، ولكنَّ في الإسلام الذي كانت تمثِّله دخن كثير في العقائد والسلوك والعلاقات، ودخل الترف حياة الحكام وأغرقوا فيه، وتزلزلت أركان العدل في كثير من ولايات الدول الإسلامية، وانتشرت

الفرق الصوفية التي جعلت الإسلام عبارة عن أذكار ورقص وأكل وقعود عن الجهاد، وكان القائمون على الدَّولة لا يجاهدون لإعادة الأمَّة الإسلامية إلى المستوى الراقي الذي حقَّقه الالتزام بالإسلام، بل كان الحكام في كثير من الأحيان يعاقبون المصلحين الذين يحاولون إصلاح الفساد الذي غرقت فيه الأمة الإسلامية.

فكانت سنّة الله تقضي بأن تنهار هذه الدولة، وعلى الرغم من المأساة الكبرى التي حلَّت بالمسلمين بسبب انهيارها، إلَّا أن هذا الانهيار كان ضروريا لابد منه.

واليوم وقد مرَّ على انهيار الخلافة نصف قرن تقريبا ننظر إلى ما أصاب المسلمين في هذا النصف من المآسي والبلايا فنألم، ولكنَّنا نرى من خلال الآلام والمآسي روحا بدأت تسري في الأمة الإسلامية تهدف إلى إعادة مجد الإسلام وعزه من جديد.

وشكَّلت هذه الروح تيارا إسلاميا ناميا، وقد أصبح هذا التيار واضحا ظاهرا، وسَرَّ هذا التيار الإسلامي نفوس الموحدين، وأقر أعينهم، وساء هذا التيار أعداء الإسلام فارتفعت عقيرتهم محذرة من الخطر الداهم، والمارد الذي

بدأ يتململ في قيوده، وهو يوشك أن يخرج من محبسه ويفك أغلاله.

ولكنَّ هذا التيار لم يبلغ مبلغا يعيد فيه عزَّة الإسلام، وينهض بالأمة إلى المستوى الذي كانت تتبوؤه، ولا يزال العلماء والمفكِّرون المسلمون منذ سقوط الخلافة وإلى اليوم مختلفين في الطريقة التي نعيد بها عزَّ الإسلام ومجده.

عندما زالت الخلافة في تركيا، ظنَّ بعض الأخيار أنه يكفي أن يُنَصَّب حاكم من حكام المسلمين خليفة كي تعود المياه إلى مجاريها، ويأخذ القوس باريها والسهم نابله، وغفل هؤلاء عن أنَّ الذين أسقطوا الخلافة كانوا لا يزالون يسيطرون على مقاليد الأمور، وهم لا يسمحون بإعادة الخلافة مرة أخرى بعد أن بذلوا جهودا هائلة غير مشكورة في هذا السبيل.

وبعض دعاة الإسلام ظنَّ أنَّه يمكن أن يخدم الإسلام ويقيم بناءه إذا انضوى تحت لواء القيادات التي تهمين على مقاليد الحكم في دياره، وفي سبيل تحقيق هذا تنازل عن شيء من الإسلام، وأعرض عما لا يوافق أهواء أولي الأمر، وهذا ركون للظالمين، وتضييع للإسلام وقد حاول الكفار

جاهدين أن يحرفوا الرسول ﷺ عن المنهج الذي دعا إليه، بحيث يتفقون معه على حلٍّ وسط، فجاءه الوحي من السماء محذرا: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾(١). وفي هذا أنزل الله ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾(٢).

وقام في الأمة علماء ومصلحون، وظنَّ هؤلاء أنَّ نشر العلم والتفقه في الإسلام وبيان المشكلات التي تحيط بالأمة الإسلامية كاف في إعادة مجد الإسلام وعزه، وغفل هؤلاء عن أنَّ الذين يفقهون ويتعلمون ويعرفون من المسلمين يبقون أوزاعا متفرقين لا يشكلون تيارا يصارع الباطل والطغيان.

وقام آخرون بإنشاء الصحف الإسلامية والمجلات الإسلامية، ويحاول آخرون إنشاء إذاعات إسلامية، ومهما انتفع الناس بما تكتبه الصحف والمجلات، وما تبثه الإذاعات، فإنَّ الفائدة محدودة، لأنَّ الذين لا يريدون

(١) سورة الإسراء: ٧٤ - ٧٥.
(٢) سورة هود: ١١٣.

للمسلمين أن يفقهوا هم أصحاب الكلمة في الدِّيار التي أنشئت فيها هذه الصحف والمجلات والإذاعات، وهؤلاء يحجبون كلمة الحقِّ، ويمسخونها، ثم إنَّ الذين يتأثرون بذلك كله لا يشكلون وحدة فيما بينهم، وبذلك تبقى قوتهم مشتتة متفرقة، لا تستطيع أن تهدم بناء معارضا للإسلام، كما لا تستطيع إقامة بناء الإسلام.

وأفضل الرواد هم الذين تنبهوا إلى أنَّ الخطوة الأولى في إقامة صرح الأمة الإسلامية من جديد تتحقق بإقامة تجمع يؤمن بهذه القضية، يسعى في سبيل تحقيقها باذلا في ذلك النفس والمال.

وفعلا قامت تجمعات كثيرة في العالم الإسلامي تنادي بالعودة إلى الإسلام وانضوى تحت لواء كلٍّ منها ألوف وعشرات الألوف، واستطاعت هذه التجمعات أن تؤثر في حياة المسلمين، لكنَّ واحدا منها لم ينجح في إعادة الأمة إلى مكانتها من جديد.

ولاشك أنَّ بناء الجماعة التي تُأهل إلى استلام الراية يحتاج إلى بناء مبدع، لأنَّ الخلل في البناء يؤخر النجاح، بل قد يفشله.

هناك تجمعات لا تعني بتربية أفرادها، وتظنُّ أنَّ كلَّ مهتمها هو إقامة الخلافة فإذا قامت الخلافة، فإنَّ الخليفة سيقضي على الباطل بجرَّة قلم وسيقيم صرح الحقِّ بمنشور أو بيان.

ونسي هؤلاء أن البيت لا يقوم إلا على ركائز وأركان، وركائز هذا العمل هم الذين ينذرون أنفسهم لتحقيقه، فإذا كان فهمهم للإسلام مغلوطا والتزامهم بالإسلام ناقصا، فأنَّى يقيمون صرح الإسلام؟.

ونادى آخرون بإصلاح الفرد المسلم والأسرة المسلمة ثم تكوين الأمة الإسلامية، واعتمدوا التربية طريقا وسبيلا، ووفِّقوا في ذلك أيَّما توفيق ولكنَّهم لم يستطيعوا تجاوز هذه المرحلة.

ودعا آخرون إلى العناية بالجانب الاعتقادي، وصرفوا جُلَّ اهتمامهم إلى العناية به، والعناية به أهم المهمات، ولكنَّهم لم يستطيعوا أن يحوِّلوا هذا التوجيه إلى منهج متكامل، واحتارت بهم السبل، واستمرُّوا في طرح قضية واحدة هي العناية بالجانب الاعتقادي فحسب.

وقامت تجمعات تحاول تغيير الأمور بالقوة، ولكنّها لم تستطع أن تفعل شيئا، وكان حالها كحال الذي يريد أن يجرَّ شاحنة كبيرة وحده. وقد طلب الصحابة من رسول الله وهم ضعفاء في مكّة أن يأذن لهم بالحرب والقتال، فقال لهم: «كفوا أيديكم»، وقال له الأنصار بعد بيعة العقبة: إن شئت مِلْنا على أهل منى بسيوفنا، فقال: «إنَّا لم نؤمر بذلك».

وعندما كانوا يطالبونه بأن يدعو الله لهم بالنصر، يبشرهم بأنَّ النصر آت، ويقول: «ولكنكم تستعجلون»، وعدم الإذن لهم بذلك لم يكن تعسفا، بل كان الحكمة بعينها، فالقلّة المستضعفة لا تستطيع أن تواجه الكثرة الكافرة، والقلّة المستضعفة لا تملك الأرض والاستقلال والسلاح والمال الكافي، فاللجوء إلى القوة تدمير للقوة الإسلامية قبل أن تقف على رجليها، وعندما تكونت القاعدة القوية التي تستطيع أن تتحمل أعباء القتال أذن لهم بالقتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[1] ثم أمروا بذلك أمراً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة الحج: ٣٩.

يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾[1] وقيل لهم : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ . . ﴾[2].

ومن الخطأ الكبير تجاوز مراحل الطريق، والقفز من مرحلة إلى مرحلة متقدمة قبل أوانها.

نستطيع اليوم أن نقول : إننا لازلنا في فترة مخاض، فالعالم الإسلامي عالم ضعيف موزَّع مشتت، وهو يعاني من مشكلات كثيرة وعويصة، وقد بلغ الدرك الأسفل من التأخر والانحدار.

والمسلمون الصادقون العاملون يحاولون دائبين أن يصححوا المسار ولكنَّهم لم يوفقوا، فالمسألة كبيرة تحتاج إلى مزيد من التفكير والتخطيط والعمل، وكلما تكاتفت جهود العاملين للإسلام كلَّما كان الأمر أدعى للنجاح والفلاح.

إنَّ نسبة كبيرة من جهود العاملين بالإسلام تذهب هدراً لأنَّها توجَّه توجيها خاطئا، فهناك مشكلات في صفوف العاملين بالإسلام، هذه المشكلات أمراض وأدواء، وهي

---

(١) سورة التوبة : ١٢٣ .
(٢) سورة البقرة : ٢١٦ .

تحتاج إلى علاج، أضف إلى هذا الاختلاف بين العاملين بالإسلام الذي يهدر الكثير من الجهود والطاقات.

إنَّ الأمة الإسلامية بحاجة إلى من يجدِّدُ لها أمر دينها، بحاجة إلى رجال يحسنون البناء، بناء النفوس وبناء الأمم، أحاطوا علما بالإسلام وعرفوا سنن الله في الحياة والأحياء، وأحسنوا التوجيه والإصلاح، فهؤلاء هم الذين يقيلون الأمة من عثرتها، ويعيدون لها عِزَّتها، ويواجهون كيد الأعداء، ويجبرون ضعف المسلمين، وعندما يأذن الله يشرق على المسلمين فجر جديد يمنُّ الله فيه على المستضعفين، فيجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين، وذلك إن شاء الله آت آت.

والحمد لله رب العالمين.

مؤلفات صدرت حديثاً للدكتور عمر سليمان الأشقر

- حكم المشاركه في الوزارة والمجالس النيابية .
- معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية .
- أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة .
- كيف تستعيد الأمة مكانتها من جديد .
- أهل السنة والجماعة .
- خيار الشرط في البيوع وتطبيقاتها في معاملات المصارف الاسلامية .
- تأليف القلوب بأموال الصدقات .
- الأضواء السنية على رافضي الاحتجاج بالسنة النبوية .

صدر حديثا عن دار النفائس

- رعاية الطفل قبل الولادة .

تأليف : إشلي مونتاجو

ترجمة : الأستاذ / عبد الرحيم صالح

- عوامل الانحراف الجنسي عند الشباب وطرق علاجها .

تأليف : الاستاذ / عبد الرحيم صالح

- الوجيز في الميراث .

تأليف : الدكتور / عارف خليل ابو عيد

- رياض الصالحين ـ النووي .
- الأذكار ـ النووي .
- تطور لغة الطفل وتطبيقاتها .

تأليف : الاستاذ / عبد الرحيم صالح

- مخاطر الوجود اليهودي على الأمة الإسلامية .

تأليف : الدكتور / محمد عثمان شبير

- حكم المعارضة السياسية في الإسلام .

تأليف : الاستاذ / أحمد عبد الله العوضي